رسالة "التربيع والتدوير" بين الهجاء والأدب

The Risālah at-Tarbi ve'tadvir between Satire and Prais

جمال عبدالغفار إبراهيم بدوي[1]

Abstract

This article analyzes the risālah at-Tarbi' ve'tadvir of Cahız who s the famous man in Arabic literature. This kind of risālah shows us the ıppear's the scholars who are competent in Arabic literature. As a result ɔf this, shows up the examples which in the area of comedy at the time ɔf intellectual level when was the its peak.

ملخص

كانت الرسائل الساخرة قد ظهرت فى الأدب العربى نتيجة لنضوج مواهب الأدباء العرب ، وتوفر أدوات المضحك الأدبى بين أيديهم ، وارتقاء أذواقهم ، وفيضان قرائحهم ، مما جعل من الرسالة الساخرة فى الأدب العربى وعاء جديدًا لأدب المضحك والمزاح والنوادر .

Cemal Abdulğaffar İbrahim Bedevi, Malezya Uluslararası İslam Üniversitesi Doktora Öğrencisi

مقدمة

عرف العرب النادرة سردًا لمضحك حيّزه الزمني محدود، وعلى الرغم من تعرّضها لشتّى مجالات الحياة، ونشاطات الإنسان، واستخدامها كل ما استطاعت من أساليب وأدوات فنية، فإنها لم تكن وعاءً مناسبًا لاستيعاب إبداعات الأدباء، الذين نضجت مواهبهم، وتوفّرت بين أيديهم أدوات المضحك، وارتقت أذواقهم، وفاضت قرائحهم، ومن هنا ظهرت الرسائل الساخرة حيث كانت الرسالة هي الوعاء النثرى المتاح أمام الأدباء فى ذلك الوقت، ولم يكن بمقدورهم أن يبتكروا شكلاً آخر غير موجود، كما فعل " بديع الزمان الهمذانى " فى مرحلة لاحقة.

وقد يعجب المرء حينما تطالعه أول رسالة ساخرة فيجدها قد جاءت ناضجة مكتملة العناصر، بل كانت وما زالت درة فريدة فى الأدب العربى والعالمي، ونقصد رسالة "التربيع والتدوير " ، غير أن هذا العجب يتبدد حين تُنسب إلى علم العربية وعبقرى السخرية الذى لمْ يطاوله أحد فى مجالها؛ وهو " الجاحظ " ، بما له من خبرة طويلة في السخرية والفكاهة، ورصده لها تدوينًا وتنظيرًا، وصياغة وتأليفًا كذلك.

لقد شُغل الدارسون بالسبب الذي دفع "الجاحظ" إلى تأليف هذه الرسالة، فأرجعه البعض إلى الخلاف الشديد بينه وبين "أحمد ابن عبد الوهاب " – الذى كتب فيه رسالته – الأدب فى موكب الحضارة – د. مصطفى الشكعة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1968م – ص 584.) وذهب البعض إلى أن السبب يكمن فى الحقد والعداوة المتأصلة بينهما (السخرية فى الأدب العربى ، حتى نهاية القرن الرابع الهجرى – د. نعمان محمد أمين طه – دار التوفيقية – القاهرة – الطبعة الأولى – 1978م – ص 194) غير أن الدكتور " نشأت العنانى " لم يقنع بهذا الإجمال، فجنح إلى التفصيل، وعدّد أسبابًا مختلفة تضافرت لتدفع " الجاحظ " لتأليف هذه الرسالة، ومن هذه الأسباب :

1 – الغيظ والحنق فى نفس " الجاحظ " حين يرى نفسه فى غير مكانه ولم يقدّر حقّ قدره، وهنالك من هو أحطّ رتبة وأقل منزلة منه، قد نال فوق ما ينبغى له.

2 – كان " أحمد بن عبد الوهاب " كاتبًا، و" الجاحظ " يكره أفراد هذه الطائفة ويعيبهم ويهزأ بأكثرهم.

3 – " الجاحظ "كان ساخرًا بطبعه، ميالاً إلى الفكاهة بفطرته، يطلبها ويلتمسها فى شتى مواطنها.

4 – كان " ابن عبد الوهاب " فى هيئته وسحنته، ونفسيته وعقليته صورة متناقضة، تدفع " الجاحظ " إلى أن يتناولها بقلمه.

5 – كان " الجاحظ " قبيح الوجه، مشوه الخلقة وربما كان " ابن عبد الوهاب " على العكس من ذلك، فغاظه ذلك وأسقط عليه شوهته.

6 – ربما تاه " ابن عبد الوهاب " بنفسه، واغتر بمنصبه حتى ضاق به " الجاحظ ".

7 – ربما كان " ابن عبد الوهاب " السبب فى الوقيعة بين " الجاحظ " وبين "ابن الزيات ".

8 – كان " الجاحظ " صاحب مذهب وطريقة فى الاعتزال و" ابن عبد الوهاب "كان يعتنق الرفض والتشبيه والقول بالبداء. (فن السخرية فى أدب الجاحظ – د. نشأت العنانى – مطبعة السعادة – القاهرة – الطبعة الأولى – 1980م – ص 206 وما بعدها)

تندرج هذه الدوافع والأسباب – رغم كثرتها ومحاولةِ الحصر والتقصيّ – تحت ثلاثة أسباب فقط هى :

أولاً – العداوة والحقد والكراهية التى كان يحملها " الجاحظ " " لأحمد ابن عبد الوهاب".

ثانيًا – ميل " الجاحظ " الفطرى للفكاهة والسخرية.

ثالثًا – توفر أسباب السخرية من " ابن عبد الوهاب ".

ونجد أن السبب الأول قد حظى باهتمام النقاد، مع أنه لا يقوم منفردًا، كما أن قيمته تأتى بعد السببين الآخرين، وعلى الرغم من أننا لا يمكننا أن ننكر وجود الكراهية والعداوة بين " الجاحظ " و" ابن عبد الوهاب " ، فإننا ندهش من الموقف النقدى من دوافع " الجاحظ " لتأليف " التربيع والتدوير " وبين دوافعه لتأليف " البخلاء" فبينما يتمثل الأول فى التسليم والتأكيد على كراهية " الجاحظ " وحقده، نجد على العكس من ذلك موقفًا مبنيًا على الشّكّ وعدم التسليم بما سجّله " الجاحظ " أو ما تُمليه القراءة لنصوصه، فقد شكك الجميع فى نوايا " الجاحظ " ودوافعه لدرجة أن وَصَفَهُ البعض بالبخل، وجعلوا حديثه عنه وسخريته منه من باب تلذّذ الشخص بذكر

ما يحب!!! (البخلاء – الجاحظ – تحقيق أحمد العوامرى ، وعلى الجارم – دار الكتب العلمية – بيروت – 1983م – ترجمة المؤلف ص 15 وما بعدها.) .

وأيضًا لدرء الشبهة والتهمة عن نفسه ! وأمّا عن التشكيك فى وجود من روى عنهم فحدث ولا حرج ! وإذا ثبت وجودهم الفعلى، فالتشكيك فى نسبة ما رواه "الجاحظ " عنهم هو الموقف النقدى المعتمد، كرسالة " سهل بن هارون " فى تفضيل البخل، إذ يُعتقد أن " الجاحظ " هو مؤلفها، وأسلوب صياغتها خير شاهد على ذلك. (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان محمد أمين طه – ص 169 وما بعدها)

إن السخرية وتشنيعات " الجاحظ " فى " البخلاء " تحطّ من القدر، وتسقط المروءة ونعتقد أنها أشدّ وأنكى منها فى " التربيع والتدوير " الذى لا يخفى على أى قارىء مدى المبالغة التى لم يحاول " الجاحظ " إخفاءها. لقد عرض الدكتور "نشأت العنانى " لآراء ثلة من الرواد حول هذه الرسالة، تُبيّن أن إفراد " الجاحظ " هذه الرسالة فى السخرية من شخصية لها وجودها الحقيقى كان لونًا جديدًا فى الأدب العربى، جعل رائدًا كبيرًا كالدكتور " طه حسين " يتساءل : (**... فحدثونى أين الشاعر العربى الذى يستطيع أن يبلغ فى الهجاء بعض ما بلغه " الجاحظ " فى رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التى تبلغ فى الطول والتفنن ما بلغه " الجاحظ "**؟) . (السخرية فى أدب الجاحظ – د. نشأت العنانى – ص 244)

لقد حجب الانبهار بمقدرة " الجاحظ " وبراعته وطول نفسه فى السخرية، بعضَ الأمور الأخرى، كتلك التى أشار إليها الأستاذ " أحمد أمين " إذ يرى أن "الجاحظ" فى رسالته هذه (**استطاع أن يجعل لها موضوعًا علميًا، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أىّ المسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان يشغل الناس فى عصر " الجاحظ " **). (السخرية فى أدب الجاحظ – د. نشأت العنانى – ص 244)

إن " الجاحظ "كان معنيًّا – طوال رسالته – بهذا الجانب أو هذا الموضوع العلمى المعرفى أو التعليمى ، ونعتقد أنه كان غاية له تمامًا كغايته من السخرية " بابن عبد الوهاب " ، وحين نرى إهمالاً لهذه الغاية فى السياق النقدى فى مقابل ما وصمت به المقامة – على سبيل المثال – من أن غايتها كانت تعليمية ؛ فإن المفارقة تزداد، والدهشة تكبر.

لقد التفت الدكتور " عبد اللطيف حمزة " إلى هذا الجانب وعدّه أحد العناصر التى تؤلف سخرية " الجاحظ " وأطلق عليه " عنصر العلم أو الثقافة " (حكم قراقوش – د. عبد اللطيف حمزة – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة – 1945م – ص 101) ولكن اهتمام "الجاحظ" كان يتعدى مجرّد الاستفادة من العلوم المختلفة فى سخريته، فنراه يستطرد كثيرًا إلى ما اعتبره البعض خروجًا عمّا تتطلبه السخرية (السخرية فى أدب الجاحظ – د. نعمان محمد أمين طه – ص 198) ونظن أنه كان من أهداف "الجاحظ" هذا الاستطراد أو الاستعراض العلمى – إن صح التعبير –.

إذا انتقلنا إلى المضحك وصوره، والسخرية وأساليبها فى " التربيع والتدوير " نجد من يرجعها إلى عناصر عامة مجملة كما فعل الدكتور " عبد اللطيف حمزة " الذى يرى أن سخرية " الجاحظ " تتألف من عناصر شتى هى :

أولاً – عنصر الضحك والمزاح.

ثانيًا – عنصر" المسح " أو العبث بالصورة – " الكاريكاتور " –.

ثالثًا – عنصر التناقض.

رابعًا – عنصر " العلم أو الثقافة.(حكم قراقوش – د. عبد اللطيف حمزة – ص 98 وما بعدها)

ويرجع براعة " الجاحظ " فى عنصر المسخ أو المبالغة فى تصوير العيوب إلى تأثره " بابن الرومى " واعتبره تلميذاً فى الهجاء له. بينما يرى الدكتور " مصطفى الشكعة " أنه (**ليس من شك فى أن " ابن الرومى " فى لوحاته وكاريكاتورياته الرائعة كان تلميذًا " للجاحظ " فى هذه الرسالة**) ! (الأدب فى موكب الحضارة – د. مصطفى الشكعة – ص 589)

ونجد من يفصل القول بعض الشىء مثل الدكتور " نعمان أمين طه " الذى يرى طرق السخرية فى هذه الرسالة تتمثل فى:

1 – التبالُه : أو محاولة الكلام على لسان " أحمد بن عبد الوهاب " بأن ينسب إليه كلامًا يدافع به عن شكله أو قصر جسمه.

2 – المبالغة.

3 – التلعب بالأسلوب: وهى أن يذكر له الصفة وضدها اقتدارًا من " الجاحظ " لسيطرته على زمام الكلام وامتلاكه لأعنته.

4 – المدح الساخر.

5 – التهكم الظاهر الضاحك: وذلك بذكره ألفاظًا كاذبة مضحكة تنتزع الابتسامة من القارئ انتزاعًا.

6 – العناصر الفنية فى سخريته أو أسلوبه الساخر ويشمل :

- الألفاظ المضحكة.
- الجمل الاعتراضية الدعائية.
- الطريقة الإنشائية كالاستفهام والأمر والنداء.
- التبكيت: وذلك بتوجيه أسئلة يستحيل الإجابة عنها.
- السجع الذى يختم به عباراته الساخرة. (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان محمد أمين طه – ص 199 وما بعدها)

إننا لا نعثر هنا على الصورة الكاريكاتيرية التى شدّت انتباه الدارسين حيث اكتفى بالإشارة إلى المبالغة كأصل جامع لها. وهو عكس الموقف الذى اتخذه الدكتور "نشأت العنانى " حيث أولى التصوير فى الرسالة جل اهتمامه، خاصة أنه عرض الرسالة بوصفها نموذجًا للصورة الكلية الشاملة من صور التصوير الهزلى (الكاريكاتور) عند " الجاحظ " وقد حدد معالم الصورة التى رسمها " لابن عبد الوهاب" على النحو التالى :

1 – العبث بتفاصيل جسمه :

(أ) الصورة تخالف ظلها.

(ب) انقلاب الصورة ظلاً والظل صورة.

(جـ) الاحتجاج لفضيلتى العرض والقصر.

(د) تحسين ما قبح فيه.

2 – مجاوزته حدود الكمال :

(أ) رفعه فوق قدره .

(ب) تفوقه على المخلوقات.

(جـ) معرفته كل شيء.

(د) خروج جماله عن المقاييس.

(هـ) حياته سبقت آدم.

3 – مقارنته بالمشاهير.

4 – التصريح بعيوبه :

(أ) ادعاؤه ما ليس فيه.

(ب) جهله بالبديهيات.

(جـ) عدم قابليته التعلم.

(د) التواء طباعه.

5 – موازنته " بالجاحظ ".

6 – قلب حقيقته :

(أ) جمعه المتناقضات.

(ب) جد قصد به الهزل.

(جـ) التلاعب بعقله.

7 – إفحامه بالأسـئلة.(فن السـخرية فى أدب الجاحظ – د. نشـأت العنانى – ص 213 وما بعدها.)

لقد لاحظ الدكتور " نعمان طه " أن أسئلة " الجاحظ " لا إجابة لها فى الأصل، ولم يكن الهدف منها سوى التبكيت وهى ملاحظة فى محلها، ونضيف أن السخرية تكمن فى طرح هذه الأسئلة حيث جمع " الجاحظ " مئات القضايا التى عرفتها الثقافة العربية خاصة والإنسانية عامة،

ولا يُرجَى لها جواب وتبالَهَ أو تحامق أو إن شئنا الدقة؛ سخر بعلم خصمه حين طالبه بالإجابة عنها، مصورًا إيّاه فى صورة صاحب العلم المطلق !

ولكن د. " العنانى " يرى أن (**أكثر الرسالة معقود على إحراجه بالأسئلة، بمساءلته مائة مسألة يكون جوابه عنها العى والحصر، فإذا هو صورة مجسمة للجهل، ونموذج للسفه والطيش**) . (فن السخرية فى أدب الجاحظ – د. نشأت العنانى – ص 212)

لو اقتصر الأمر على أسئلة لها جواب – مهما صعب أو دقّ هذا الجواب – لم تبلغ السخرية ما بلغته من حذق وصنعة. كما يقرّر الدكتور " العنانى " ما ذكره "الجاحظ" فى رسالته فى قوله : (**... أسألـــه عن مائة مسألة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله...**) . (رسائل الجاحظ – جمع – حسن السندوبى – المطبعة الرحمانية – القاهرة – الطبعة الأولى – 1933 م – ص 188) ويؤكد على عدد المسائل فى موضع آخر – نقصد الدكتور " العنانى " – فى قوله :

(**ويوجّه إليه الأسئلة الكثيرة، وقد بلغت مائة مسألة يعرف قصوره عن إجابتها**) . (فن السخرية فى أدب الجاحظ – د. نشأت العنانى – ص 241)

وإذا بحثنا عن حقيقة هذا العدد نجد أنه ذُكر عند " الجاحظ " على وجه التكثير لا على وجه الحقيقة كما أخذه د. " العنانى " وإلاّ فإن الرسالة قد حوت مئات الأسئلة، وإذا قيل إن المائة قُصد بها القضايا والموضوعات التى سأل عنها فإننا لا نجدها تصل إلى نصف المائة مما يؤكد ما نذهب إليه.

إن ما سبق أن عرضنا له لا يمكن تقييمه بصورة جيدة دون أن نخلع أنفسنا من الافتتان " بالجاحظ " ورسالته وهو ما فعله د. " نعمان أمين طه " حين سجّل بعض العيوب التى يعتقد أنها بالرسالة وهى :

- **العبارات الهجائية الصريحة التى بثها هنا وهناك** ، فى حين أنه كان من الأجدر أن يلجأ إلى التورية والتعمية والإيلام غير المباشر شأن السخرية ونهجها.
- **كثرة ذكر أسماء المشهورين من الرجال.**
- **الصفات الكثيرة.**

- **إطالة الجملة أحيانًا.**
- **المبالغة فى السخرية مبالغة غير مقبولة أو مستملحة.**
- **المبالغة فى القياس الفلسفى** الذى تمجّه السخرية التى تميل إلى الإيجاز.
- **الاستطراد** كنهجه فى كتبه العلمية الأخرى إذ هو يصلح فى مجالها ولا يصلح فى رسالة قائمة على الهزء.
- **الجمل الطويلة** ، ذات الأنسجة العقلية البعيدة عن طريق التهكم.
- **عدم إيراد بعض الطُرف** أو الأقاصيص المخترعة حتى يبعد السأم والملل عن القارئ. (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان محمد أمين طه – ص 196 وما بعدها.)

هذا العيب الأخير قد اختصر الطريق علينا، حيث يثير التساؤل التالى :

هل كان " الجاحظ " غير قادر على الاستشهاد بالطرف والأقاصيص (النوادر)، أو على اختراعها إنْ عزّ وجودها؟

لا يستطيع من له أدنى معرفة " بالجاحظ " أن يدّعى عجزه فى ذلك، إذن فلِمَ ترك رسالة عارية من النوادر، وهو ما يراه البعض عيبًا وسوأة ؟

تزداد قيمة هذا التساؤل حينما نذكر أن " الجاحظ " نفسه قد أنشأ كتاب "البخلاء" مُبرّءًا من هذا العيب المزعوم. وهو ما يؤكد عدم العجز وانتفاء الجهل فلا يبقى إلا أنّ " الجاحظ " قد أراد لرسالته هذا الشكل الفنى وعمد إليه عمدًا، تمامًا كما فعل " الهمذانى " بعد ذلك حين ابتكر المقامة شكلاً فنيًا أودعه إبداعاته وأفكاره.

فى ضوء ذلك يمكننا الارتياب فى العداوة والكراهية التى كانت فى صدر "الجاحظ" ضد خصمه، لا لننفيها أو ندّعى عكسها. ولكن لا نثق فى شدّتها وضراوتها كما يرى النقاد المعاصرون وجَعْلَهَا الهدف والغاية من تأليف الرسالة.

إن المقارنة السابقة بالمقامة من حيث الشكل أو الوعاء الفنى تُحيل إلى مقارنة أخرى من حيث الباعث فلمْ يكن " الهمذانى " داعيًا إلى الكدية أو التسول أو الاحتيال حين لجأ إلى بطله " الإسكندرى " ولكنها شخصية فنية استطاعت أن تحمل همومه وآراءه وفلسفاته، وهو ما وجده " الجاحظ " – مع عدم إنكار ما بينهما من اختلاف – فى " أحمد بن عبد الوهاب ".

يمتاز " الجاحظ " بمقدرته على إخفاء ذاته فهو : (**ينسُب الحديث هنا وهناك إلى هذا وذاك، فلا تستطيع أن تأخذ عليه كلمة، أو تتعرف ذات نفسه من عبارة يبوح بها قلمه... وإنّ من أبرع صفاته أن يستر ما يحب أحيانا بإعلان ما لا يحب**). (البخلاء – الجاحظ – ترجمة المؤلف – ص 15)

ومع ذلك نجد تسليمًا بكل ما ذكره فى هذه الرسالة حتى العدد الذى يمكن التيقن منه ! وإذا اتبعنا ذلك المنهج سنجد أن " الجاحظ " قد صرح بغايته من السخرية والهزل، وإن ما يعدّه البعض هجاءً صريحًا إذا وضع فى سياق الهزل والمزاح كما كان شائعًا آنذاك؛ ربما خفّت حدّته، واستُسِيغَ ممجوجه، وإذا رجعنا إلى ما ذكره الدكتور " نعمان طه " لما وصفه بالهجاء الصريح نجده دلّل عليه بما يلى:

- قول " الجاحظ ": (**وما أدرى – حفظك الله – فى أى الأمرين أنت أعظم إثمًا، وفى أيهما أنت أفحش ظلما: أبتعرضك للعوام، أم بإفسادك الخواص**).
- وقوله : (**وقد سألتك – وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيرًا**...).
- وقوله: (**وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر، وطول مجاوز للقصد**) . (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان محمد أمين طه – ص 196)

ولعل أشدها وأوجعها قوله له : (... **وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرًا**). حيث أحاله بعدها على كتبه (**فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد، فالزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى** ....) (رسائل الجاحظ – السندوبى – ص 236)

هذه السخرية القاتلة برغم مرارتها نجد " الجاحظ " منقادًا فيها وراء سجيته وطبعه فى الكتابة الذى سجله الدكتور " نعمان طه " نفسه (**وأعنى به مسحة المزاوجة أو التفلسف**

وتشقيق الكلام، وكثرة إيراد المترادفات الكثيرة) (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان طه – ص 195)

كما أن منهج الرسالة يعتمد على الاستقصاء فى طرح الأسئلة وذكر المعضلات والتباهى بمعرفة الأضداد والاحتجاج للشىء وضده وذكر الرجال وما شُهِرُوا به، وهو ما يبرّر العديد من العيوب التى رآها الباحث فى الرسالة.

نعم هذه السمات غالبة فى كتب " الجاحظ "كلها بيْدَ أنها فى " التربيع والتدوير" هى الغاية والهدف ولقد أشار " الجاحظ " إلى ذلك حين عدّد أغراض الرسالة فى قوله : (**هذا الكتاب مُرْض مع ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضداد ومن الجد والهزل، ومن الحظر والإطلاق، ومن الاستئناف والقطع، ومن التحفظ والتضييع، ومن التثبيت والتهاون. إذا أريد به تقريع معجب أو تكشيف مموه، أو امتحان مشكل أو تخجيل وقاح، أو قمع مار، أو ممازحة ظريف، أو مساءلة عالم، أو مدارسة حافظ، أو تنبيهًا على الطريق، أو تجديدًا للذهن....**

ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب، ثم فى الخواطر الغث والسمين؛ والفاسد والصحيح، والمسرع إليك والبطىء عنك، والدقيق الذى لا يكاد يفهم والجليل الذى لا يلقى الفهم. ثم هى على طبقاتها فى التقديم والتأخير، وعلى منازلها فى التباين والتمييز، والمطالب طرق ولدرك الحقائق أبواب، فمن أخطأها وانتظر كان أسوأ حالاً ممن لم يخطئها ولم ينتظر. وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرغ يكون التنبه. هذا جماع هذا الباب وجمهوره وأقسامه وجملته...). (رسائل الجاحظ – حسن السندوبى – ص 238)

لقد كانت أمام " الجاحظ " أهداف محدّدة حاول الوصول إليها من خلال هذا الشكل الفنى الساخر، فإذا كان التشهير " بأحمد بن عبد الوهاب " هدفًا قد أفصح عنه بوضوح، فهنالك كذلك ممازحة الظريف، ومساءلة العالم، ومدارسة الحافظ... إلخ وإذا تعجب الدكتور " نعمان أمين طه " لاستطرادات " الجاحظ " بسبب لفظة أو عيب ذكره كاستطراده فى الكلام عن المراء أو المزاح (السخرية فى الأدب العربى – د. نعمان محمد أمين طه – ص 196) فإننا لا نشاركه الدهشة إذ نعتقد أن المراء ربما كان أحد الصفات الحقيقية " لابن عبد الوهاب " فقد أكد عليها " الجاحظ" فى التمهيد الذى صدّر به رسالته، وقد لجأ إلى الحديث عن المراء مباشرة لم تَقُدْه لفظة

أو سجع وذلك فى قوله : (**كأنـــه لم يسمع بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى "السائب بن صيفى": " هذا شريكى لا يشارى ولا يمارى " ولا يقول** .....) إلى نهاية التمهيد وبداية الرسالة بالبسملة. (رسائل الجاحظ – حسن السندوبى – ص 188)

وأما بالنســـبة للمزاح فلقد أطال فيه وأســـهب، وما كتبه يعدُّ من أوْفَى وأغنى وأوجز ما كتب عن المزاح والهزل. ويبدو أن " الجاحظ " تعمّد الإسهاب والبسط فى هذه الجزئية ليخفى ما بدا واضحًا جليًا من خفايا نفسه أو يحدّ من هذا الوضوح، وليترك القارئ وقد افترسته الحيرة لا يدرى مراده أو موقفه الحقيقى كعادته فى الكتابة دائمًا. فهو يقرّ بأنه قد يعمد إلى الجدّ ومراده الهزل أو على العكس يعمد إلى الهزل ومراده الجدّ، فهل الموقف النقدى الصائب هو عكس ظاهر القول باطّراد؟

إن الارتكان إلى مقولة الهجاء والاكتفاء بها تجعلنا نقف هذا الموقف، فإذا مَدَحَ " الجاحظ " فهو يرمى إلى " الهجاء " وإذا اعتذر فهو يســـتخفّ بخصـــمه... وهكذا غير أن المزاح والفكاهة غاية كبرى عند " الجاحظ " نعتقد أنها تسبق عداوته أو حقده.

يؤيّد ما نذهب إليه قراءة الدكتور " مصطفى ناصف " " للتربيع والتدوير " الذى بدأها بالملاحظة التالية:

(**" أحمد بن عبد الوهاب " يلهى القارىء المتعجل عن عقل " الجاحظ " الذى لا يبطل ريبه، ولا ينفد تساؤله، ولا ينقضى عجبه، " الجاحظ " متعجب دائمًا، متسائل دائمًا، وفى وسعنا أن نقول عن " الجاحظ " مثل ما قاله عن " أحمد بن عبد الوهاب". كيف يدّعى " الجاحظ " البساطة وهو معقد ؟ كيف يدّعى الوضوح وهو غامض ؟ وكيف يدّعى الهجاء وهو بعيد عن الهجاء ؟**) . (محاورات مع النثر العربى – د. مصطفى ناصف – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – شباط 1997 م – ص 101)

ويعود الدكتور " مصطفى ناصف " مؤكدًا هذا المعنى بوضوح وجلاء، لا يحتمل اللبس :

(**إذا غالينا فى تطبيق فكرة الهجاء ضـــاع منا ثراء " التربيع والتدوير "**). (محاورات مع النثر العربى – د. مصطفى ناصف – سلسلة عالم المعرفة –1997م – ص 103)

إذا استبعدنا اعتذار " الجاحظ " عمّا بثّه فى ثنايا رسالته من سخرية قاتلة موجعة، فلا أقلّ من أن نعترف بأنه كان مهمومًا بالتخفيف من وطء هذه السخرية أو خروجها من أبواب الفن الأدبى، وذلك فى قوله – على سبيل المثال –:

(وأمّا ذكرى القد، والخرط، والطول، والعرض وما بيننا وبينك فى ذلك من التنازع والتشاجر والتحاكم والتنافر، فإن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد. ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال والجد فى كل مقال وتركوا التسمح والتسهيل وعقدوا فى كل دقيق وجليل لكان السفه صراحًا خيرًا لهم، والباطل محضًا أردّ عليهم. ولكن لكل شىء قدر ولكل حال شكل. فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه وكذلك المنع والبذل والعقاب والعفو وجميع القبض والبسط. فإن ذممنا المزاح ففيه لعمرى ما يذم، وإن حمدناه ففيه ما يحمد. وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع وحاله بحال السخف أشبه، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم، وينفى حتى يصير كالغدر، فلا. لأن المزاح مما يكون مرة قبيحًا ومرة حسنا، والظلم لا يكون مرة قبيحًا ومرة حسنا ...). (رسائل الجاحظ – حسن السندوبى – ص 213)

إذا ما عدنا إلى ما سبق ذكره من خلو الرسالة من النوادر التى كان حريًّا بها أن تبعد الملل والسأم عن القارىء – كما يتصور البعض – نجده يستثير سؤالاً هامًا هو :

هل تحمل الرسالة تأثيراً مباشرًا من فن النوادر ؟ إن التأثير غير المباشر واضح فى خبرة " الجاحظ " بالنادرة ودربته على فنونها المتعددة، كما يتضح التأثير غير المباشر كذلك فى الأساليب التى استخدمت كالتباله أو التناقض أو تلك الصور الهزلية التى أفسح لها " الجاحظ " المجال؛ فهى أساليب قد مرّت علينا عند دراسة المضحك فى النادرة. غير أن التأثير المباشر كالاقتباس أو التضمين أو الاستشهاد أو غير ذلك – مما سيقابلنا عند الآخرين ممن تلوه – لا نعثر عليه فى " التربيع والتدوير" ولعل النهج الذى سلكه فى الرسالة قد حال بينه وبين هذا التأثير، حيث كان مهتمًا باستقصاء كل محال وغريب، والاحتجاج للشىء – كل شىء – ونقيضه، فلم يكن "الجاحظ" بعيدًا عن النادرة، ولكن الشكل الفنى لرسالته لم يكن ليستوعب أكثر مما حُشِدَ فيه؛

حتى إنه حاول أكثر من مرة أن يدافع عن طول رسالته. (على سبيل المثال – السابق ص 231 فى قوله (وقد تعجب ناس من إطالتى.... إلخ) .

ومع ما سبق نجد بعد التعابير تذكرنا بنادرة ما قد رواها " الجاحظ " على سبيل المثال قوله :

(... ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس، وأن الطول الخفى أحب إليك من الطول الظاهر...). (المرجع السابق ص 194) .

الطول الخفى والطول الظاهر يُحيلان إلى نادرة رواها فى " الحيوان " تحت عنوان (احتجاج طيب كوفى للتسمية بمحمد) وهى :

(... وحدثنى " محمَّد بن عبّاد بن كاسب " قال: قال لى " الفضل بن مروان" شيخٌ من طِيَاب الكوفيين وأغبيائهم: إن ولد لك مائةُ ذكر فسمهم كلهم محمدًا، وكنهم بمحمد، فإنك سترى فيهم البركة . أو تدْرى لأى شىء كثر مالى ؟ قلت: لا والله ما أدرى. قال: إنما كثر مالى لأنى سميت نفسى فيما بينى وبين الله محمدًا ! وإذا كان اسمى عند الله محمدًا فما أبالى ما قال الناس !). (الحيوان – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – 1996م – ج 3 - ص 27)

قد يكون من التعسف الربط المباشر بين تعبير " الجاحظ " ونادرته، ولكن من الإنصاف – فى الوقت ذاته – أن نؤكد أن القياس الفاسد فى كليهما هُوَ هو نفس الأسلوب الفنى ويدعم ذلك رواية ثلاث نوادر تتبع نفس الأسلوب بعد هذه النادرة.

يمكننا الآن أن نحدّد – مما سبق – السمات الأساسية للرسائل الساخرة على وجه العموم وهى :

- **ذاتية الرسالة:** فهى تحمل أسلوب صاحبها وثقافته ومقدرته على التفكه والمزاح والسخرية.
- **خصوصية موضوعاتها:** على عكس النادرة التى تتصف بالعموم والمرونة، فالرسالة تبحث فى موضوع محدد، من الصعب استعارته لحدث آخر، أو زمان مختلف.

- **طول الرسالة نسبيًا** : حيث تتعدى أحيانًا عشرات الصفحات.
- **محدوديـة الرواية وإسناد الخطـاب فيها** : إذ إنه موجه غالبًا إلى شخص ما. كما أن الرسالة تأتى على لسان صاحبها وهو ما يعنى عدم وجود أحداث تتطور دراميا داخلها.

هذه السـمات العامة تحدد شـكل السـخرية والفكاهة الذى تحتويه الرسـائل، فنجد مساحته الزمنية أطول من تلك المتاحة فى النادرة، كما نجد أن الرسائل أضافت إلى المضحك بلاغة أعلام الكتابة العربية، وبراعة أسـاليبهم الفنية، وتقنياتهم الرفيعة فى النثر، الذى بلغ أعلى ذراه فى القرن الرابع، ويكفى أن ما بين أيدينـا من رسائل هزلية وساخرة قد كتبها " الجاحظ " و" ابن العميد " و" أبو إسحاق الصابى " و" بديع الزمان الهمذانى " و"الخوارزمى " ومن كان فى طبقتهم ومنزلتهم، وما أدراك ما هؤلاء فى الكتابة والنثر!!

لقد جاءت "التربيع والتدوير"درة فريدة في الأدب العربي بل العالمي ، سـتتكشـف لنا قيمتها الحقيقية كلما تنوعت أدوات البحث الحديث ، وخرجنا من دائرة الأحكام النقدية المسـبقة السـائدة التي يتم تداولها كأنها الحقيقة التي لاحقيقة بعدها! فمقولة مثل العداوة المسـتحكمة بين "الجاحظ" وبين "أحمد بن عبدالوهاب" قد حجبت عن أعين الدارسـين قيمة "التربيع والتدوير" ، وإنه لظلم بيّن أن تدرس هذه الرسالة كأحد أساليب الهجاء فقط .

قائمة المصادر والمراجع

1. الأدب فى موكب الحضارة – د. مصطفى الشكعة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1968م.
2. البخلاء – الجاحظ – تحقيق أحمد العوامرى ، وعلى الجارم – دار الكتب العلمية – بيروت – 1983م.
3. الحيوان – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – 1996م.

4. حكم قراقوش – د. عبد اللطيف حمزة – مطبعة مصـــطفى البابى الحلبى – القاهرة – 1945م.

5. رسائل الجاحظ – جمع حسن السندوبى – المطبعة الرحمانية – القاهرة – الطبعة الأولى – 1933م.

6. الســـخرية فى الأدب العربى ، حتى نهاية القرن الرابع الهجرى – د.نعمان محمد أمين طه – دار التوفيقية – القاهرة – الطبعة الأولى – 1978م.

7. فن الســـخرية فى أدب الجاحظ – د. نشـــأت العنانى – مطبعة الســـعادة – القاهرة – الطبعة الأولى – 1980م.

8. محاورات مع النثر العربى – د. مصـطفى ناصـف – سـلسـلة عالم المعرفة – الكويت – فبراير 1997م.